العرب
السبت 2020/02/22
السنة 42 العدد 11625

فقدان الصحف المحلية خسارة لا يمكن للمجتمعات تحملها

مصير الصحافة المحلية مرهون بجودة مميزة ووصولها الى القراء في كل مكان

لا يمكن التنبؤ بمستقبل الصحافة المطبوعة ككتلة واحدة، وكذلك مستقبل الصحف المحلية، لكن الجميع أمام التحديات ذاتها تقريبا، بالتأكيد سيتمكن بعضها من التغلب على ما يواجهها وكسب انتشار أوسع وقاعدة جماهيرية أكبر.

«ذا دايلي ستار» آخر ضحايا مجزرة الصحف العربية

لندن -اضطرت صحف محلية عربية كثيرة إلى التوقف عن الصدور بالنسخة الورقية بعد تأزم الظروف السياسية والاقتصادية وانعكاساتها على الدخل الإعلاني والاشتراكات والبيع. وفي لبنان مثلا تسبب الانهيار المالي الذي كان متوقعا منذ فترة طويلة، في محو العائدات التي كانت تبقي صحفا لبنانية على قيد الحياة.

وخلال شهر فبراير الجاري، أوقفت الصحيفة الوحيدة الصادرة باللغة الإنجليزية "ذا دايلي ستار"، إصدار نسختها المطبوعة.

وفي مصر شهدت مؤسسات صحافية مجزرة وظائف. واضطرت بعض الصحف إلى تقليص عدد العاملين إلى النصف.

وفي بعض الدول العربية الأخرى امتنعت عدة من صحف محلية عن دفع رواتب موظفيها أو خفّضتها بنسبة كبيرة.

تواجه الصحف العربية نفس التحديات والضغوط التي تواجهها الصحف في الدول الغربية، ومنها انهيار وسائل الإعلان التقليدية والتخلي عن المنصات القديمة والهجرة إلى مواقع التواصل الاجتماعي التي لا تدفع أموالا، وبات قطاع صناعة الصحافة الورقية برمته يواجه صراعا من أجل البقاء. وكانت الصحف المحلية بمنأى عن هذه التحولات في السنوات الماضية لكن الأمر تغير جذريا.

ولطالما وضعت الصحف المحلية رغم أنها بيئة إعلامية مختلفة تماما عن البيئة التي تهيمن على صناعة الأخبار في العالم في سلة واحدة مع كل أنواع الصحف.

ويشكل هذا النوع 97 في المئة من صناعة الصحف. ويصفه الخبراء بأنه "الأغلبية الصامتة".

وفي المجتمعات الصغيرة، تعتبر هذه الصحف غالبا المصدر المحلي الوحيد للمعلومات، كما يقول كريستوفر علي الأستاذ المساعد في جامعة فرجينيا. وهي تساوي "غوغل محلي"، تجد بها كل شيء بدءا من أرقام الهواتف إلى آخر الأخبار، حتى أن نصف الموظفين في الصحف المحلية الذين استطلعت آراؤهم كانوا يشعرون بالأمان في وظائفهم وكانوا متفائلين بشأن مستقبل الصحف المحلية. لكن هذا لم يطل طويلا.

خيانة الأمانة

في خضم الحديث عن فايروس كورونا والأحداث السياسية الكبيرة التي تعصف بالعالم، لم يكن من المتوقع أن يثير إفلاس ماكلاتشي، ثاني أكبر سلسلة صحف أميركية، الكثير من الاهتمام. في إشارة جديدة على تعمق أزمة الناشرين المحليين.

وماكلاتشي هو ناشر مجلة ميامي هيرالد، وشارلوت أوبزرفر، وكانساس سيتي ستار، وصحف أخرى في جميع أنحاء الولايات المتحدة. يعود أصل شركة الصحيفة إلى عام 1857 مع بداية ورقة من أربع صفحات في سكرامنتو بكاليفورنيا، والتي أصبحت في نهاية المطاف "ذا سكرامنتو بي".

ويأتي إشهار إفلاس المجموعة رغم استمرار الصحف الصادرة عنها في تحقيق إنجازات صحافية مهمة، حيث كانت صحيفة ميامي هيرالد وراء تفجير فضيحة تورط ملياردير أميركي في الاستغلال الجنسي للأطفال.

وذكرت المجموعة في بيان أن ماكلاتشي والصحف الثلاثين المحلية التابعة لها ستواصل العمل كالمعتاد أثناء فترة الحماية من الإفلاس.

كسر الأمر القاعدة التي تقول إن صناعة الصحف المحلية لا تزال تكافح.

وتذكر الجميع تنبّؤ المحرر التنفيذي لصحيفة نيويورك تايمز دين باكيت الذي قال إن "معظم الصحف المحلية سوف تموت في السنوات الخمس المقبلة".

ووفقا لتقرير حديث صادر عن مؤسسة بين أميركا PEN America، تم إغلاق ما يقرب من 20 في المئة من جميع الصحف الأميركية منذ عام 2004.

لا يختلف الأمر عربيا وإن كان بصفة أقل. وتوجهت أصابع الاتهام طبعا إلى الإنترنت.

بشكل عام، يُعتقد أن الصحف المحلية كانت أفضل حالا من سوق الصحافة المريضة ككل. قد كان الكثير من الناس يعتقدون أن الصحف المحلية لا تزال تبلو بلاء حسنا. واعتقد 71 في المئة من البالغين في الولايات المتحدة مثلا أن منافذ الأخبار المحلية الخاصة بهم "سليمة" من الناحية المالية، وفقا لاستطلاع أجرته مؤسسة بيو 2018. ولكن أكدت الأبحاث أن 14 في المئة من المستخدمين فقط دفعوا ثمن الولوج إلى خدمة الأخبار في الصحف المحلية على الأنترنت.

والسبب وراء عدم قدرة الصحف المحلية على تحصيل رسوم كافية لاستمرارها هو "خيانة الأمانة"، مثلما يصفها العاملون فيها حيث يكفي أن يشترك شخص واحد في صحيفة محلية حتى يحصل الباقون على الرقم السري لاشتراكه ويدخلون مجانا لتصفح أخبارهم.

ولا يخفي الأمر نجاح صحف محلية كثيرة في توظيف التطور التكنولوجي لإنشاء مواقع إلكترونية تحتوي أزمتها، وتواجه من خلالها احتداد المنافسة.

في المقابل ظلت الصحف العربية تنظر إلى المواقع الإلكترونية باعتبارها "ترفا" زائدا للنسخة الورقية دون أي رؤية استراتيجية. يضاف إلى ذلك طبيعة الواقع السياسي المعقد الذي يعيشه العالم العربي بعد أن فرضت السلطات السياسية حصارا على شبكة الإنترنت يُضاهي الحصار المفروض على بعض الصحف الورقية لسنوات عدة. وكنتيجة لذلك لم تنجح سوى الصحف التي تتلقى تمويلا مباشرا من الأنظمة لنقل وجهة نظرها في البقاء.

آلية البقاء

يثور جدل كبير بشأن التحديات التي تواجهها الصحافة المطبوعة بشكل عام، حيث سحبت الأدوات التكنولوجية الجديدة البساط من تحت أقدام الصحف الورقية، أيا كانت المناطق التي كانت تغطيها.

لكن التحول إلى الأدوات التقنية، ليس العامل الوحيد الذي يؤثر على انتشار ومبيعات الصحف سواء كانت محلية أو إقليمية. وإن كانت للوكالات والصحف الإقليمية ميزة التواصل مع السياسيين وصناع القرار بشكل أكبر، فإن للصحف المحلية ميزة أخرى وهي الالتصاق بالمجتمع والعمل من قلب الحدث، فإذا ما بنت قدرا من الثقة بينها وبين قرائها، فسيكون لها جمهور أكبر.

ويقول أوستن بيوتنرو الرئيس التنفيذي لشركة لوس أنجلس تايمز "إن خفض التكاليف وحده ليس طريقا للبقاء على قيد الحياة في مواجهة الانخفاض المستمر في الإيرادات الطباعة والمنافسة الرقمية الشرسة، يجب تطوير مصادر اخرى للإيرادات".

ويرى بيوتنرو أن الصحف عليها الإقرار بأن قوتها تكمن في المحتوى عالي الجودة الذي يضعه الصحافيون من الطراز العالمي، "هذا هو مستقبل الصحافة المحلية، صحافة عالية الجودة، تشرك المجتمع، تصل إلى القراء المهتمين في كل مكان".

ويقول خبراء إنه لا يمكن التنبؤ بمستقبل الصحافة المطبوعة ككتلة واحدة، وكذلك مستقبل الصحف المحلية، لكن الكل أمام نفس التحديات تقريبا.

الصحف المحلية ملتصقة كثيرا بالمجتمعات الصغيرة، تعتبر غالبا المصدر المحلي الوحيد للمعلومات، وهي تساوي «غوغل محلي»، تجد فيها كل شيء بدءا من أرقام الهواتف إلى آخر الأخبار المحلية والعالمية

عندما يجلس الصحافي على الكرسي الحكومي

كرم نعمة
كاتب عراقي
مقيم في لندن

الفكرة المفترضة وإن لم تكن مثالية تقول إن الصحافي عندما يتقلد منصبا حكوميا عاليا فإنه سيكون أقرب الناس إلى الزملاء السابقين، سيقف مع الصحافيين للدفاع عن مواقفهم، كما سيكون مخلصا حيال الإيمان بحرية تبادل المعلومات وفق ديمقراطية حرة من الأفكار.

ذلك ما يفترض أن يحدث لكنه في الواقع يكاد يمثل خيبة في أرقى النماذج الديمقراطية العالمية، أما في عالمنا العربي فسيختبئ الصحافي السابق وراء كرسيه الحكومي الجديد ويقطع صلته بزملاء الأمس، تنام لديه الفكرة القائلة بأن الصحافي يسمع بأكثر من أذن ويرى بأكثر من عين ويمشي بأكثر من قدم، لأنه ببساطة سيتحول إلى مسؤول حكومي في دول عربية لا تشجع على المشي السياسي الصحي!!

من السهولة بمكان أن يدرج القراء أمثلة على ذلك الواقع في العالم العربي، كما يحتفظ الزملاء الصحافيون بتجارب من المفيد عرضها من أجل فكرة المجتمع الحر وديمقراطية تبادل المعلومات.

تسنى لي أن أكون في نشاط سياسي مع عدد من الصحافيين في دولة عربية، وبينما نقف في حلقات بانتظار بدء الفعالية، تقدم منا مسؤول حكومي يتقلد منصبا قياديا في تلك الدولة وبادر بتحيّتنا والحديث عن واقع بلده السياسي، ولأن الصحافي مطلوب منه بشكل دائم أن يستثمر المكان الذي فيه، كانت فرصتي في إطلاق الأسئلة التي رحب بها المسؤول وتفاعل معها، وبالفعل أجاب على ما يمكن أن اعتبره الموضوع الأكثر طلبا في وسائل الإعلام آنذاك.

كنت سعيدا حينها أن أظفر بقصتي الصحافية التي لم يصل إليها غيري، لكن الذي حدث أن زميلا سابقا ومستشارا إعلاميا للمسؤول الحكومي اتصل بي بعد ساعات من الحديث، وأخبرني أن كل ما قيل ليس للنشر!

المسؤولية الأخلاقية تدفعني إلى الالتزام بما طلبه الصحافي السابق والمستشار الحكومي اليوم، إلا أنني لا أشك أن مشاعر الخيبة التي انتابتني بعدها يمكن أن تنتابه أيضا لو كان في مكاني، فما الذي يدفعه لمغادرة "صحافيته" لمجرد أنه أصبح في موقع حكومي مسؤول؟ الصحافي بالنسبة للحكومات كائن ضار بشكل دائم، بينما هو الأكثر نفعا للجمهور من أجل إيصال حقيقة ما يحدث.

تتساءل أمل كلوني إذا أصبح قادة العالم أكثر ابتكارا في إيجاد طرق لإسكات الصحافة، ألا ينبغي لنا نحن باعتبارنا المدافعين عن الصحافة أن نفعل الشيء نفسه!

ذلك ليس مقتصرا على واقعنا الإعلامي العربي، أن أمثلة ما يحدث في البيت الأبيض لا يثير الاستغراب في زمن دونالد ترامب، هناك فكرة مستمرة ومتصاعدة يقودها ترامب لشيطنة الصحافة.

فصارت اللغة التي يستخدمها الحكام الاستبداديون ورجال الدين المتشددون حول الصحافة مستوحاة من اللغة التي جاء بها الرئيس الأميركي.

أن يعترف كبار الصحافيين الأميركيين بأن البيت الأبيض يمالي المراسلين من أجل مصلحة ما، فإن الاختلال في القيم الصحافية قد امتد إلى كبرى الديمقراطيات المعروفة بصحافتها الحرة وبحرية تداول المعلومات.

مثل هذا الكلام أيضا تناوله آدم بولتون المحرر السياسي السابق لشبكة سكاي نيوز، عندما طالب المستشار الإعلامي لرئيس أي حكومة بعدم إقصاء الصحافيين والعمل على مساعدتهم في الحصول على المعلومة الدقيقة، رافضا أن تكون مهمة المستشار الإعلامي لرئيس الحكومة هي إملاء الأخبار على الصحافيين.

بوريس جونسون نفسه صحافي سابق يجلس اليوم في أعلى كرسي حكومي في 10 داوينغ ستريت، يعامل الصحافيين بازدراء وتفرقة غير مسبوقة. فهو يستخدم مصورا خاصا به ويستغني عن مصوري وسائل الإعلام المستقلة.

ويفضل عادة الإجابة على الأسئلة التي تصله من الجمهور على أسئلة الصحافيين الأكثر أهمية والتي غالبا ما تكون محرجة ومطلوبة من قبل الرأي العام.

هناك ضجة متصاعدة في أروقة "فيلت ستريت" بعد استبعاد الصحافة المضادة لسياسة الحكومة البريطانية، من الأنشطة التي يقوم بها جونسون، الأمر الذي دفع المعارضة إلى اتهامه باستنساخ أساليب الرئيس الأميركي في استبعاد الصحافيين الذين لا يروقون له. بل وصل الحال بمنع وزراء ومستشارين في حكومته من الظهور ببرامج إخبارية في هيئة الإذاعة البريطانية "بي.بي.سي" وقنوات بريطانية أخرى. الأمر الذي دفع صحيفة الغارديان إلى اتهام كبير مستشاري جونسون ببناء شبكة من الجواسيس لمعرفة ما إذا كان أي فرد من إدارة رئيس الوزراء يرتبط بعلاقات ودية مع الصحافيين يمكن من خلالها تسريب الأخبار.

سبق وأن عبر نيك روبنسون كبير مراسلي هيئة الإذاعة البريطانية "بي. بي.سي" السابق في مقر 10 داوينغ ستريت عن مخاوفه بالقول "لقد كان هناك دائما توتر بين الصحافيين والسياسيين بحكم رغبتهم في السيطرة على وسائل الإعلام وإخضاع المراسلين لخطابهم السياسي".

ليتخيل القارئ العربي بأننا نتحدث عن المثال البريطاني الديمقراطي الأول في العالم، ورئيس الوزراء بوريس هو صحافي سابق، تدرج في عمله بأكثر من مطبوعة، قبل أن يصل إلى مرحلة السياسي الإشكالي. ويفضل معاملة الصحافيين بكل هذا الازدراء، فكيف هو الحال في الأوساط السياسية العربية.

بالأمس وجهت أمل كلوني، المبعوثة الخاصة لحكومة المملكة المتحدة لحرية الإعلام، انتقاداتها لدونالد ترامب متهمة إياه بأنه يحبط كل خططها الطموحة لمكافحة قمع وسائل الإعلام على مستوى العالم، في المقابل لم تتطرق أمل لوضع الصحافة في بلدها بريطانيا!!

وتساءلت كلوني "إذا أصبح قادة العالم أكثر اتحادا وأكثر ابتكارا في إيجاد طرق لإسكات الصحافة، ألا ينبغي لنا نحن باعتبارنا المدافعين عن الصحافة أن نفعل الشيء نفسه". من دون أن تجد من يسألها إن كان بوريس جونسون معنيا بمثل هذا الكلام!